# لغز الحياة وفنونها

جون رسكن

ترجمة: عبد الله عرفة

# لغز الحياة وفنونها

جون رسكن

ترجمة وتعليق:

د. عبد الله عرفة

# إهداء

إلى من حلت لغز حياتي ومنحتني كل فنونها، إليكِ أهدي هذا العمل.

# تصدير

يأتينا هذا الكتاب الصغير دون مقدمة توضيحية أو توطئة من أي نوع، ويبدو أنه محاضرة ألقاها المؤلف على جمع من الشباب في أيرلندا، الذين طلبوا أن يكون الفن موضوع المحاضرة. لكن المحاضر يعتذر بلطف لعدم التزامه بموضوعـها المطلـوب، ويشرع في إلقاء خطبة رائعة «ولكن ما هي حياتك؟ إن هي إلا بخار يلوح هنيهة ثم يتلاشى». يبدو السيد رسكن في واقع الأمر مناسبًا تمامًا لدور الخطابة، فحديثه جدي، وصادق، وبليغ، لا يعيبه سوى ضعف الكاتب في تقديم المفارقات، وافتقاره للتجانس في عقيدته. يصطبغ النص بملمح حزين، نابع من اعترافه بخيبة أمله وفشله في إقناع العالم بحقيقة وأهمية أفكاره عن الفن، ومن إحساسه بعمق لغز الحياة عمومًا.

يرى السيد رسكن أن الفن وثيق الصلة بالحياة والأشخاص والدين والدوافع، ولذلك يرى أنه بتناوله لغز الحياة فإنه يتناول الفن. أول ألغاز الحياة بالنسبة إليه هو اللامبالاة التامة بمستقبل الحياة (والتي يعتبرها السيد رسكن أن نكون دون دوافع دينية). يتساءل هل نحن واثقون من وجود الجنة والنار؟ وإن لم نكن واثقين، ولم نهتم بأن نكون كذلك «كيف يكون أي شيء نفعله صحيحًا؟ كيف يكون أي شيء نفكر فيه حكيمًا؟ أي شرف في الفنون التي تمتعنا، وأي فائدة من الأملاك التي تسعدنا؟» تلك اللامبالاة أحد ألغاز الحياة. ولكن على الأقل، قد نتوقع من المعلمين العظماء أن يسلطوا الضوء على حياتنا المستقبلية. هل قاموا بذلك؟ دانتي وملتون، بالنسبة إلى السيد رسكن، « أسمى نموذج للرجال في العصر المسيحي الذين جاهدوا أنفسهم، وبحثوا تلك الأمور العميقة واستبصروها». إنهما العرافان الكبيران، لذلك ينتقدهما لتقصيرهما وأوهامها، قائلا:-

«لقد بدا لي، في كفاحي الصارم مع هذا التبلد في نفسي سعيًا لإيقاظ معنى لحياتي، أن رجالا كهؤلاء لهم أن يلعبوا بأنفَس الحقائق وأثمنها (أو أخطر الأكاذيب) والتي ستبلغ كل البشر المنصتين إليهم (أو تخدعهم) بأذن مصغية وقلوب متحمسة، لكن لهذه الأرواح الخانعة الباحثة عن لقمة العيش فإنهم يعزفون على مزامير موزونة، بأسماء رنانة تزين مجالس الجحيم، تلامس قيثارة الشعراء المتجولين كمسارات الشمس، وتملأ مداخل الأبدية، التي أخفى الرسل وجوههم أمامها، والتي تود الملائكة النظر داخلها، بدمى تافهة لخيالاتهم الدراسية، وأضواء حزينة لإيمان ثائر لحبهم الأبدي المفقود»

لقد عبر السيد رسكن بلغة بليغة رائعة، ولكنه يبدو جليًا لنا أنه يتهرب من السؤال تهرب الشعراء، وإن بدا مقنعًا للمتحمسين من الشباب. ولكن هل اختار أي من دانتي أو ملتون الجنة والنار كموضوع لأعمالهم وفي عقلهما أي احتمال لأن يأخذ القارئ تخيلاتهم الرائعة على أنها حقائق، أو حتى كتخطيط أولي غير مكتمل لما آمنوا به حقًا؟ أليس مفهومًا تمامًا أنهما شاعرين، لا عرافون ولا مستبصرون؟ ولمـاذا كان السيد رسكن مذهـولا أن شاعرين كهذين عليهما أن يعلما الناس عن العالم المجهول بما صنعت مخيلتهما؟ أليس كل مرء حر أن يرسم أية صورة يحبها على الفضاءات الهائلة المظلمة التي لا يستطيع أكثر الفانين حكمة أن يخترقها؟ ولماذا يكون المستقبل الغامض أكثر أهمية من الحاضر الذي نعيش فيه؟

يخلط المؤلف، بتشوش عقلي غريب، بين دور العراف والمعلم، ودور الشاعر، تمامًا كما خلط الفنون بالدين.

يكمل السيد رسكن انتقاده لهوميروس وشكسبير لنفس السبب. أحد ألغاز الحياة بالنسبة إلى الأخير أنه لم يكن أكثر مما كان، أن السماء لم تفتح أبوابها إليه، أن عبقريًا مثله لم يعلّم الناس عن وجود الله، وأننا نجد في كتاباته الحديث عن

القانون البـشري فحسب، دون اعتراف بـأن «هناك إله يقدّر نهايتنا، ويشكلها كما يريد».

يشرع المؤلـف بعد ذلك في انتقـاد الحكماء من رجال الدين والحكماء من المفكرين دون جدوى. ثم يخبرنا أن الرجال العمليين في هذا العالم ذوي الدوافع الأنانية – الرجال الدنيويين كما أسماهم- لا يحلّون لغز الحياة أفضل من سابقيهم. بعد ذلك يدلف إلى تسليط الضوء على العمال الكادحين، وهنا يبدو فكره أكثر وضوحًا وصحة، وينتهي، في صفحات من لغة رائعة إنسانوية وحكيمة، إلى الحديث عن الكساء والإطعام والإيواء للطبقة العاملة. هنا تبدو آراؤه الدينية أعم وأكثر صحة من أفكاره في النصف الأول من حديثه، والتي نقتبس من كلماته ونحن نتساءل كيف يحمل في عقله كلا الفكرتين.

الحقيقة أن السيد رسكن، كغيره من العباقرة، رجل خاضع لحالته النفسية، وذلك يفسر التبايـن وانعدام التناغم في محاضرته التي يبدأها في حزن وأسى ويختمها بأمل. الرجل مدعوٌ للحديث عن الفن، لكنه يخبر جمهوره أن «السمة الأهم في الفن أنه لا يجب الحديث عنه». يا لها من عبارة حقا!

يحدثنا السيد رسكن، بيأس أو بتواضع، عن أعماله التي ضاعت هباء في كتاباته عن الفن، رغم التزامه بأفكاره التي أدت لذلك. كذلك يشير إلى أن قدرته على الكتابة الجميلة البليغة في تراجع، لكننا لا نلحظ ذلك هنا. لكننا نرى بوضوح أن حالته النفسية تصبغ أفكاره وربما تكونها.

قد يجد قارؤنا العربي صعوبة في قراءة النص وفهم دوافع المؤلف، الذي يستخدم لغة مجازية يخلطها بلغة الكتاب المقدس تارة، وبلغته البليغة تارة أخرى. لكن الكتاب نافذة تطل على زمن منسي وفراغ كبير لأدب العصر الفكتوري. كذلك قد يصل إلى ذهن قارئنا العربي أن تصديري –لما فيه من نقد للكتاب- هجوم على

المؤلف أو تقليل من عمله، لكنني في حقيقة الأمر ما شرعت في ترجمة هذا العمل إلا لإيماني بأنه رؤية مختلفة ونوع جديد على مكتبتنا العربية، بعيدًا عن التكرار، ربما كان صيحة في فلاة غير مطروقة فطرقها الطارقون.

د. عبد الله السيد عرفة

مصر، أغسطس 2024

## لغز الحياة وفنونها

لم أكن على علم، عندما قبلت مخاطبتكم اليوم، بقيود في صدد مواضيع النقاش التي سأطرحها أمام هذه الجمعية. القيود التي، رغم صحتها وحكمتها في ضوء الظروف الحالية، ستعوقني بلا شك من تحضير أي محاضرة لكم في موضوع الفنون بصورة تكون مفيدة على الدوام. اعذروني إذن لأنه يتحتم علي أن أتجاوز تلك القيود، لأن تقصيري سيكون قصورًا في اللغة، لا في الهمة. فإن مس أي مما أقول الدين الذي هو أساس الفنون، أو السياسات التي ساهمت في قوته، فإن أسأت إلى أحد فإني أسيء إلى الكل، لأنني لن أفرق بين العقائد، أو خلافات الأحزاب، كما أنني لن أخشى الإساءة إلى أي منها بإثباتي، أو بمحاولة الإثبات، الصلة بين كل ما هو جيد في فنون الإنسان وحرفه، وببساطة إيمانه وصدق وطنيته.

لكنني يعوقني شيء آخر في حديثي إليكم يحبسني في صراحة القول، ليس هنا فحسب بل في كل مكان، وهو أنني لست على علم كامل بدرجة استعداد الحاضرين ليشيدوا بمعرفتي العميقة بموضوع محاضرتي، أو بدرجة الانتباه التي يولونها لي فقط لأنه ذاع صيتي ككاتب بارع ومتحدث مفوه. ذلك لأنني حظيت بما أعتبره بوقاحة سوء حظ في قدرتي على نظم كلماتي ببلاغة، حتى عوقبت على هذا الفخر باكتشاف أن كثيرًا من الناس يفكرون في بلاغة الكلمات وحدها، دون أي اهتمام بمعانيها. لذلك فإنني شرعت في فقد هذه القدرة على استخدام اللغة البليغة، وأصبحت أقول ما أود قوله الآن بوضوح وجلاء. لقد تغيرت أفكاري كما تغيرت كلماتي، وبينما كان ما حظيت به من تأثير في حياتي السابقة نابعًا من الحماسة التي تمكنت بها من الإسهاب في جمال السحب وألوانها في السماء، فإن كل التأثير الذي أرغب فيه الآن نابع من الجدية التي أ سعى بها إلى تتبع جمال نوع آخر من الـ سحب، الـ سحب الـ ساطعة، التي يُكتب عنها «ما حياتك؟ إن هي إلا بخار يلوح هنيهة ثم يتلاشى».

أعتقد أن قليلاً من الناس بلغوا منتصف حياتهم أو آخرها دون أن يشعروا -في لحظة تغير أو لحظة خيبة أمل- بحقيقة تلك الكلمات اللاذعة، ودون أن يفزعوا من خفوت أشعة الشمس من سحب حياتهم، إلى الغصة المفاجئة باكتشاف أن نسيج حياتهم وبنيتها كانت هشة كأنها حلم، وأن اجتيازها كان عابرًا كأنه الندى. ولكننا لا نستطيع دومًا، حتى في أوقات المفاجئة الموحشة، أن ندرك ما تتسم به هذه الحياة البشرية في طبيعتها وليس في تلاشيها فحسب، بل لغز السحابة نفسها، إذ طرُقها ملبدة بالظلام، وصورها ومساراتها لا يقلل من روعتها كونها غامضة وملتوية، لذا فليست في الغطرسة وحدها التي لا ندركها، بل في الظلال التي لا نستطيع لها اختراقًا، بأن حياة السحب التي ننعم بها ما هي إلا «كرجل يسير مختالا في الظل، مزهوًا بنفسه بلا طائل».

وأيا ما بلغت حرارة عواطفنا أو توهج فخرنا، هل حقًا فهمنا عمق السمة الثالثة والأكثر مهابة لحياتنا في كم أن حياتنا تشبه تلك السحب في السماء، ليس في سرعة زوالها فحسب، ليس في غموضها فقط، بل في قوتها كذلك. ذلك أنه في روح الإنسان شعلة هي أقوى من البرق، وإحسان هو أكرم من المطر، وأنه رغم أن خيرها وشرها سيُنسيان في يوم ما، وأن المكان الذي امتلأ بذكرها سينساها قريبًا، فإن فارق السماء والأرض بين من كان وجودهم الوجيز نعمة كغيم عدن الذي نبت من الأرض ليروي جناتها، وبين من عرفتهم أماكنهم كظل متغير متحول، تقول السماء عنهم أنهم «آبار بلا ماء، وغيم يحمل العاصفة إلى من قدّر لهم غيم الظلام».

بيد أنه بالنسبة لمن عاشوا منا كفاية ليكوّنوا تقديرًا عادلاً لسرعة التغيرات المفزعة التي تظهر جليًا في القوانين والفنون وفي مبادئ الرجال، يتراءى لي أن الطبيعة الحقة لحياتنا ولعنفوانها ومسؤولياتها لا بد أن تعبر عن نفسها بحزن كامل وعبوس. ولكنني، مع علمي بأن هذا الشعور في عقلي ناتج عن خيبة الأمل، لا أشك

في الشعور ذاته، رغم كوني معارضًا لأية درجة من المبالغة فيه. كلا، بل إنني أومن بأن خيبة الأمل دواء ناجع في أوقات التغير العنيف والسعي في اتجاه جديد، وبأننا قد نرى في الغسق ألوان الأشياء من حولنا بجلاء أكبر من أكثر أوقات الشمس توهجًا. ولأن هذه الحقائق عن أفعال الرجال التي أقدمها بين أيديكم اليوم في مجملها يشوبها الحزن، ولأنني أومن بأن قلوبكم الأيرلندية الطيبة تستجيب للتعبير عن الشعور الذاتي الصادق أكثر من استجابتها للمبادئ المجردة، سأسمح لنفسي بالحديث بإسهاب عن أسباب ندمي الخاصة، ما يسمح لكم بطرح عادل بتسميتها مرارة عقل أو بصيرة عقل تخلى عن كل آماله، وأخفق في تحقيق أهدافه.

لقد قضيت السنوات العشر الأقوى في حياتي (من العشرين إلى الثلاثين) في سعي دؤوب لإظهار عظمة أعمال الرجل الذي آمنت بأنه أفضل رسامي مدرسة إنكلترا منذ رينولدز. لقد كان لدي إيمان راسخ بقوة كل حقيقة جمالية على الانتشار في النهاية، وأن تتبوأ مكانتها في الفائدة والشرف، كما جاهدت لتقديم أعمال الرجل إلى هذا المكان الموقر بينما كان لا يزال حيًا. لكنه كان على دراية -أكثر مني- بلا جدوى الحديث عن ما لا يراه الناس بأنفسهم، وكثيرًا ما صدني بسخرية حتى وإن قدم لي الشكر، ووافته المنية قبل أن تحقق أعمالي أية درجة من الشهرة. تابعت ما أفعله سعيًا لأن أكون ذا فائدة للناس، طالما لم أكن ذا فائدة له، في تقديم عبقريته لهم. حققت كتبي نجاحات صغيرة. ارتفعت أسعار الصور الحديثة، وبدأت أستلذ بإحساس الانتصار التدريجي عندما واتتني فرصة مثالية، إذ أسند مجلس المعرض الوطني لي مهمة تنظيم لوحات تيرنر وسمحوا لي بعرض ثلاثمائة مثال لأعماله عن الطبيعة لتعرض في كنسنغتون. عُرضت أعماله —ولا تزال- في كنسنغتون، لكنها ليست معروضة حقًا إذ الغرفة الخاصة بأعماله فارغة دومًا من الزوار.

بدا لي أنني أضعت السنوات العشر إذ لم أحقق مبتغاي منها. لم أهتم لذلك لأنني على الأقل تعلمت عملي بحرفية وصار بإمكاني أن أستخدم معارفي خير استخدام. لكنني اهتممت باكتشاف أفزعني بأن أكثر عقول الفنون عبقرية قد تقضي العناية الإلهية له بأن يعمل ويكد ويموت دون فائدة، أنه في نقائه ما يجعله غير مرئي للعين العادية، لكنه في ثنايا هذه البراعة الفائقة تكمن الصدوع التي قد تكون قاتلة بقدر ما كانت فضائله سدى، بأن مجده كان زائلا كما كان خفيًا، وأن رونقه وبهاءه قد يبدو لنا كالجليد في الصيف وكالمطر وقت الحصاد.

كان هذا أول ألغاز الحياة لي. ولكن رغم أنني بذلت كل طاقتي في دراسة اللوحات، فقد بذلت جهدًا ثانويًا في العمارة، حيث لا يمكنني أن أشكو قلة التعاطف، إذ ضمن أسباب رغبتي في إلقاء هذه المحاضرة عن الفنون هنا في أيرلندا هو أن أقف أمام هذا المبنى الرائع: مبنى كلية الهندسة، الذي هو مثال حي على ما أود تعليمه للطلبة، لكنه الآن كذلك صرح يضم ألمع العقول التي وهبت حياتها للفنون كصديقي العزيز بنجامين ودورد. كذلك شرفت بالدعم الأيرلندي خارج أيرلندا عندما أسند إلى صديقي السير توماس دين مبنى المتحف في أكسفورد حيث تُعرض أجمل الأعمال التي نحتها فنانون تعلموا هنا، كما أنني شرفت بتصميم شباك ساحة المبنى المخصص لدراسة العلوم الطبيعية في إنكلترا والذي نحته نحات أيرلندي.

قد تظنون أنه ليس لمن حقق نجاحات في مهنته أن يتحدث عن خيبات الأمل. لكنني –أنا والسيد ودورد– عجزنا عن تحقيق مبتغانا وذهبت أعمالنا أدراج الرياح. قد يتغير الأمر في المستقبل، لكن العمارة التي سعينا لتقديمها كانت غير متسقة مع الرفاهية الهوجاء والأساليب المشوهة والبؤس المروع للمدن الحديثة في الطرز المعمارية ليومنا هذا، خاصة في إنكلترا، فقد اكتسبت دون ريب سمعة سيئة. قد تلحظ من وراء بخار محرك أو من على مقعد بمحطة القطارات، النشاز الكئيب

لحسنها اللحظي، ثم بمشقة تفك شفرة نقوش الأزهار المختنقة بالسخام. لقد شعرت بأني ملام من المدارس التي أحببت لما لحقها من أذى. لقد أدركت أن هذا الجزء الجديد من سعيي راح أدراج الرياح أيضًا، وأنه انكمش منزويًا بين شوارع الحديد وقصور البلور ليقتصر على نقوش الجبال وألوان الزهور.

رغم خبرتي بالفشل الذي تكرر مع مرور السنين، لكنني استنفذت صبركم في إظهار أسباب فتور همتي. دعوني إذن أخبركم عن نتيجة هذا الفتور. تعلمون أن هناك ميل في عقول كثير من الرجال عندما يخيب أملهم في الأهداف الكبرى لحياتهم للإعلان أن الحياة كذبة في حد ذاتها. يميلون للاعتقاد بأن الحياة لأنها أخابت أملهم فإن من طبعها خيبة الأمل دائمًا، أو أن السعادة نحصل عليها في مخيلتنا فقط، وأن سحابتها لا قوة فيها ولا نار، وإنما محض سحابة مرسومة قد نسعد بها لكننا نبغضها.

لكن تأثير الفشل على عقلي كان نقيض ذلك. فكلما أحبطتني الحياة، كلما صارت أكثر اتزانًا وجمالا لي. لقد بدا أن زينة الحياة كانت حقًا كذبة، لكن كان وراءها شيء لم يكن كذبًا. لم تعد الحياة لي محض سحابة مرسومة بل سحابة فظيعة لا يمكن اختراقها، ليست شبحًا يختفي عندما أرسم قربه وإنما مسلة من الظلام محرم علي الرسم قربها. لقد رأيت أن كلا من إخفاقاتي ونجاحاتي في أمور تافهة نابعان من رغبة قوية وصادقة في فهم معنى الموجود وقانونه الكلي، كما رأيت بجلاء أن كل نجاح راسخ في الفنون –وفي غيرها- نابع من هيمنة الرغبات الدنيا بإيمان راسخ في قوة الطبيعة البشرية المتحدية أو في الوعد بأن الجزء الفاني منها قد يذوب في الخلود يومًا ما، وأن الفنون ذاتها لم تحقق يومًا علامات قوة أو شرف إلا في محاولتها تحقيق ذلك الخلود، سواء في خدمة دين عادل أو وطنية إيثارية. لا شيء مما قلته أكثر صحة ووجوبًا، ولا شيء مما قلته أسيء فهمه، أكثر من تأكيدي على أن الفنون لا يمكن أن تكون صحيحة بذاتها دون أن يكون دافعها

صحيحًا. يُساء فهم تأكيدي كالتالي: يأتيني رسامون ضعفاء لم يتعلموا الحرفة أبدًا طوال حياتهم وليس بإمكانهم رسم خط سليم، ويبكون قائلين: «انظر إلى لوحتي تلك، لا بد أنها جيدة فدافعي لها جميل. لقد وضعت كل ما لدي بها واستغرقت سنوات أفكر فيها». لهؤلاء أقول: «سيدي لا يمكنك أن تفكر في شيء عدة سنوات، فأنت لا تملك العقل لذلك! ورغم دوافعك الحسنة التي كانت قوية بما يكفي لتحرق نفسك بنار بطيئة، كان لزامًا عليك أن تتعلم كيف ترسم لوحة أولاً، فليس بمقدورك رسم لوحة أو نصف لوحة. إنك لا تملك يدًا لذلك».

لكننا نقول بحسم لمن يتقنون عملهم ويعرفون ما يفعلون: «سيدي إن لديك هبة عظيمة، فلتخدم أمتك بها بصدق. إننا نعول عليها أكثر ما نعول على الجيوش والأساطيل التي قد تلغيها إن كنت القائد العام لها وستكون أقل خيانة لأمتك من لو نبذت قوتك العظمى وخدمت الشيطان بها بدلا من البشر. قد تستبدل الجيوش والأساطيل إن فقدتها، لكن ما إن تفرط في عقل عظيم حتى يصبح لعنة على العالم للأبد».

هذا ما عنيته إذن بقولي إنه على الفنون أن يكون دافعها نبيلاً. كذلك بينت أنه ما كان للفنون أن تزدهر إلا عندما يكون لها غاية نبيلة، وأن تكون مكرسة لإظهار الحقيقة الإلهية أو لتوضيح القانون الإلهي. لكنني لاحظت أن الفنون أخفقت في هذا الإظهار وفي ذلك التوضيح، فالشعر والنحت والرسم –رغم كونها فنونًا عظيمة عندما تعلمنا شيئًا عن الآلهة فقط- طالما خانت تعويلنا عليها وأصبحت سفراء للفخر والشهوة. كذلك استشعرت مشدوهًا اللامبالاة الجامحة في دواخلنا نحن الجمهور –كذلك في دواخل المعلمين- فالحكمة والصواب لكل فعل ولكل فن من فنون الحياة لا بد أن تتسق مع الفهم القويم لغايات الحياة، فقد كنا غارقين في حلم بليد، قلوبنا مثقلة وعيوننا ناعسة وآذاننا مغلقة كيلا يصلنا أي صوت ملهم، كيلا نرى بأم أعيننا، ونفهم بقلوبنا، ونشفى.

هذه اللامبالاة العارمة الكامنة في كل منّا هي أول كبرى ألغاز الحياة، إذ تقف في وجه كل إدراك وكل فضيلة. ولسنا في دهشة كافية منها. فقد نفهم أن تكون أشغال الحياة وتسلياتها دون دافع، أما أن لا يكون للحياة نفسها دافع -أن لا نهتم بأن نعرف لأي شيء تفضي حياتنا، وأن لا نحول دون سلبها منا- فذلك لغز بحق. فلنفترض أنني ناديت على أحد الحضور باسمه، وأخبرته أن عقارًا كبيرًا تُرك له إرثًا في ظروف غامضة، ولكن رغم معرفتي بضخامته فإنني لا أعرف إلى أي مدى ولا أعرف أين يقع، سواء في الهند الشرقية أو في غرب إنكلترا أو في أقاصي الأرض. أعرف فقط أنه تركة ضخمة وأن هناك فرصة بأن يخسره كله إن لم يعرف البنود التي ورثه بناء عليها. لنتفرض أنني قلت ذلك لأي من الحضور مع علمه بصدقي، هل تظنون أنه سيجلس هانئًا بهذه المعرفة الضبابية إن كان بإمكانه معرفة المزيد؟ ألن يبذل كل طاقته ليجد بعض الدلائل التي تقوده إلى الحقيقة ولا يستريح حتى يصل إلى ذلك المكان؟ ولنفترض أنه شاب واكتشف أنه لن يحصل على التركة إلا إذا ثابر سنوات معينة تحت الفحص في حياة كادحة دؤوبة، وأن نصيبه من التركة مناسب لقدر كدحه ومثابرته من يوم لآخر، ألا تعتقد أنه من الغرابة بمكان إن لم يبال الشاب بتحقيق الشروط أبدًا، ولم يهتم بأن يعرف المطلوب منه، وإنما عاش كما هو دون اهتمام بحجم نصيبه من العقار؟ حسنا، تعلمون أن الأمر سيان لجموع المتعلمين في الدول المسيحية. يعترف كل رجل وامرأة –في أي حشد كهذا- بأن تركة لا متناهية تقف أمامهم إن هم أرضوا مالكها، وأن نقيض تلك الأملاك تركة من المعاناة اللامتناهية محفوظة لهم إن هم أغضبوا مالكها. رغم ذلك لا يفكر واحد من الألف من هؤلاء البشر، لعشر دقائق في اليوم، أين تلك التركة، وكم يبلغ حسنها، وأي حياة يعيشونها ليستحقوها. قد يعجبكم معرفة أن كثيرًا منكم ساخطون علي لحديثي عن ذلك الأمر! لقد قدمتم اليوم لتسمعوا عن فن هذا العالم، لا عن حياة العالم القادم، وقد أثرتكم بالحديث عن أشياء تسمعونها أي أحد في

الكنيسة. لكن لا تخافوا، سأتحدث إليكم عن اللوحات والنقوش والفخار وكل ما تريدون سماعه عن هذا العالم. بل ربما تقولون نريدك أن تحدثنا عن اللوحات والفخار لأننا واثقون بأنك تعرف الكثير عنها، لكنك لا تعرف شيئًا عن العالم القادم. حسنا أنا حقا لا أعرف. هذا صحيح تمامًا. بيد أن الغرابة نفسها واللغز الذي أدفعكم لتلحظوه يكمن في هذا: أنني لا أعرف وأنكم لا تعرفون. هل بمقدوركم الإجابة على سؤال جرئ واحد دون ارتباك عن العالم الآخر- هل أنتم متيقنون من وجود الجنة؟ متيقنون من وجود الجحيم؟ متيقنون من أن الرجال الذين يسقطون أمامكم في الطرقات في جحيم أبدي أم جنة دائمة؟ متيقنون من أن موتكم سيخلصكم من كل ألم لتكافئوا على فضائلكم وتنعموا في غبطة وترتقوا في صحبة دائمة للملك؟ هل أنتم متيقنون من ذلك؟ وإن لم تكونوا متيقنين، هل يهتم أي منا بأن يتيقن؟ كيف يكون أي شيء نفعله صحيحًا؟ كيف يكون أي شيء نفكر فيه حكيمًا؟ أي شرف في الفنون التي تمتعنا، وأي فائدة من الأملاك التي تسعدنا؟ أليس هذا من ألغاز الحياة؟

قد تظنون أنه من التدبير الحسن أن عموم البشر لا يقفون –بإمعان أو قلق- عند هذه الأسئلة، وأن أمور الحياة ما كان لها أن تتم إن كانت هذه الأفكار الشغل الشاغل لنا جميعًا. ليكن الأمر كذلك. لكننا نقول على الأقل أن أعظمنا وأكثرنا حكمة، المعلمون بطبيعة الحال للبقية، سيفصلون أنفسهم عن البقية ليبحثوا عن ما يمكن معرفته عن أقدار أمتهم، وأن يعلّموا ذلك دون مواربة أو بلاغة، وإنما بأوضح الكلمات وأكثرها صدقًا وجدية.

إن أسمى نموذج للرجال في العصر المسيحي الذين جاهدوا أنفسهم، وبحثوا تلك الأمور العميقة واستبصروها هما دانتي[1] وملتون[2]، لا ينافسهم أحد في جدية الفكر وبلاغة الكلمات. إنني لا أحدثكم عن شخصين من منظور أبرشي كنسي مقدمًا إليكم العقيدة والإيمان، وإنما عن رجلين سعيا لاكتشاف كنه العالم الآخر بقدر ما يسمح عقلهما البشري. فإن كانت الكلمات المقدسة تعلمنا كيف نصل هناك، فإن هذين الشاعرين كافحا لاكتشاف ما سنراه هنالك وما سنقابله في العالم الأعلى أو الأدنى.

وماذا أخبرانا؟ إن شهادة ملتون عن أهم حدث في نظامه الكوني كله، سقوط الملائكة، مبني كليًا على شهادة هسيودوس[3] عن الحرب العظمى بين صغار الآلهة والعمالقة، أما باقي قصيدته فمأساة تصويرية استخدم فيها كل مهارة لغوية، ليس فيها أي تفصيلة يعتبرها أي دين حي شبه معقولة حتى. أما قصيدة دانتي فأكثر انفعالا. إنها رؤية حقيقية، لكنها واحة من أكثر الرؤى جموحًا، حلم يستحضر فيه دانتي كل نوع كريه من الخيالات الوثنية السابقة ويجددها ويزينها، ليقع مصير الكنيسة المسيحية بأكمله تحت تلك الرموز المقدسة، وليفهمها الناس بمساعدة شاب فلورنسي نابه.

لقد بدا لي، في كفاحي الصارم مع هذا التبلد في نفسي سعيًا لإيقاظ معنى لحياتي، أن رجالا كهؤلاء لهم أن يلعبوا بأنفس الحقائق وأثمنها (أو أخطر الأكاذيب) والتي ستبلغ كل البشر المنصتين إليهم (أو تخدعهم) بأذن مصغية وقلوب

---

1. دانتي أليغيري، شاعر وفيلسوف إيطالي من القرن الرابع عشر. أهم أعماله الكوميديا الإلهية (المترجم).

2. جون ملتون، شاعر إنكليزي من القرن السابع عشر. أهم أعماله الفردوس المفقود (المترجم).

3. هسيودوس شاعر يوناني من عصر هوميروس. نظم قصيدة ثيوغونيا عن الآلهة الإغريقية، والحرب بينها وبين العمالقة، وصعود زيوس ليصبح كبير الآلهة (المترجم).

متحمسة، لكن لهذه الأرواح الخانعة الباحثة عن لقمة العيش فإنهم يعزفون على مزامير موزونة، بأسماء رنانة تزين مجالس الجحيم، تلامس قيثارة الشعراء المتجولين كمسارات الشمس، وتملأ مداخل الأبدية، التي أخفى الرسل وجوههم أمامها، والتي تود الملائكة النظر داخلها، بدمى تافهة لخيالاتهم الدراسية، وأضواء حزينة لإيمان ثائر لحبهم الأبدي المفقود.

أليس هذا لغز من ألغاز الحياة؟ بل أكثر. علينا أن نذكر أن هذين المعلمين كانا مغلفين بانفعالاتهما ومحبطين في بحثهما عن الحقيقة. لقد كانا رجلي حرب فكرية غير قادرين على إدراك أين تداخل طموحهما مع تعبيرهما عن القانون الأخلاقي، أو أين اختلط ألمهما مع غضبهما. لكن رجالاً أعظم من هذين كانوا أعظم من المنافسة، رجالا –مثل هوميروس وشكسبير- بطباع غير معروفة، أدت إلى اختفائها في العصور التالية ليصبحوا أشباحًا كذكرى آلهة وثنية قديمة. إن الطبيعة البشرية برمتها تعلن عن نفسها في ضعف واهن للرجال ذوي البصيرة المتقدة السليمة، التي لن يكابدوا معها ولن يجرؤوا إلا تمجيدها، عندها تخضع لهم كل الحضارة الوثنية والمسيحية. لا يهم ألبتة كم قرأ كل منا لهوميروس أو لشكسبير، فقد تعفن كل شيء من حولنا بسببهما. لقد تعلم كل رجال الإغريق أعمال هوميروس، ثم تعلم كل الرومان أدب الإغريق، ثم تعلم كل الإيطاليين والفرنسيين والإنكليز الأدب الروماني ومبادئه. أما عن شكسبير فأقول إن الحكم العقلي على كل رجل منذ ميلاده يعتمد بدرجة ما على قدر قراءاته لشكسبير. أي شيء أوصله هذان الرجلان –نبع الذكاء البشري- إلينا عن العقيدة بالتناسب مع ملكتنا العقلية؟ ماذا كان أملهما ومنبع بهجتهما؟ أية عظة قدماها إلينا وأي تقريع؟ أي شيء يقع بجانب قلبيهما يوحي إليهما بكلماتهما الخالدة؟ هل لديهما سلام يقدمانه حلا لاضطرابنا؟ أي خلاص لمعاناتنا؟

لنتناول هوميروس أولاً، هل هناك أية صورة أسوأ من مصير الإنسان في القصة الهومرية العظيمة؟ لقد كانت السمة الرئيسة في شخصية أخيل رغبته العارمة في تحقيق العدالة ورقة مشاعره. بيد أنه في أغنية الإلياذة المحزونة، كان هذا الرجل –رغم عون أكثر الآلهة حكمة له- أكثر الرجال ظلمًا، واستحالت رقة مشاعره ليصبح أكثر الرجال قسوة، عنيف في حبه وصداقته ليخسر حبيبته ثم صديقه لصالح من قدم جيش أمته للموت. هل يقدم الرجل حياته لصاحبه؟ نعم، حتى لصاحبه الميت. لقد قام أخيل –رغم ميلاده الإلهي وتعليمه الإلهي- بالتخلي عن مملكته وأمته وحياته، بإراقة دم المذنبين والأبرياء، ودمه ذاته، ليموت في النهاية بيد أقل منافسيه. أليس ذلك لغز من ألغاز الحياة؟

ولكن أية رسالة يبعثها إلينا شاعرنا نحن بعد خمسة عشر قرنًا من الإيمان المسيحي؟ هل في كلماته غبطة تفوق كلمات الوثني؟ هل أمله أقرب منا؟ هل قراءته للقدر أكثر سعادة؟ آه لا! إنه يختلف عن الشاعر الوثني فقط في أنه لا يعترف بأي آلهة –من أجل خلاصه- ولا أرباب، وبالصدفة البحتة.. بضربة حظ.. برسالة مبتورة.. ببطش أبله أو بحيلة خائن، يورد الصالحون وذوو القوة موارد الهلاك ويفنوا دون كلمة عن أمل. لقد نسب قوة الإخلاص المعهود –ببصيرة ضرورية- إلى العادل الكريم. إن فراش موت كاثرين ليسطع برؤيا الملائكة، بينما يقف الملك المحارب حوله قتلاه عرفانًا بحضور اليد التي تنقذ. فبدلا من الشعور الدائم بوجود يد الله التي تساعدنا، والتي كانت في كل التقاليد الوثنية مصدر القوة البطولية في المعركة وفي المنفى وفي وادي الموت، نجد في شاعرنا المسيحي فقط ضمير القانون الأخلاقي إذ «الآلهة عادلة، وإنما تبتلينا بذنوبنا».

أليس هذا لغز من ألغاز الحياة؟

انظر حولك الآن: عن حياتنا كبشر يخبرنا رجل الدين ما لا نثق به، ويخبرنا المفكر ما لا يمنحنا السكينة. لكن هناك نوع ثالث قد نلجأ إليه: الرجال العمليون ذوو الحكمة. لقد جلسنا عند أقدام الشعراء يغنون عن الجنان، يقصون على آذاننا أحلامهم. لقد استمعنا إلى الشعراء يغنون عن الأرض، وألقوا على آذاننا مرثيات وكلمات يأس. لكن هناك نوع آخر من الرجال: أولئك غير القادرين على التخيل، غير المستجيبين للحزن، ولكن حازمين في أهدافهم، ماهرين في أعمالهم. أولئك الذين نرى قلوبهم وآمالهم حاضرة في هذا العالم، ونقف أمامهم لنتعلم منهم كيف نعيش في راحة في هذا العالم. ماذا قد يقولون لنا أو يقدمون لنا كمثال؟ هؤلاء الملوك، هؤلاء المستشارون، رجال الدولة وبناؤو الممالك، الرأسماليون ورجال الأعمال، الذين يزنون الأرض وغبارها حق وزنهما. إنهم يعرفون العالم حق معرفته، وما نعتبره لغزًا من ألغاز الحياة لا يرونه كذلك. بإمكانهم تعليمنا كيف نحيا وكيف نستخرج خير هذا العالم منه.

أعتقد أن بإمكاني إخباركم إجابتهم بأن أقص عليكم حلمًا راودني مرة. فإنني وإن لم أكن شاعرًا لكنني أحلم أحيانًا: حلمت أنني في حفلة طفل بها كل وسائل الترفيه الممكنة التي وفرها لهم مضيف كريم. كان البيت فخمًا أمامه حدائق غنّاء، وانطلق الأطفال أحرارًا في الغرف والحدائق دون أي رعاية على الإطلاق سوى أن يستمتعوا بحبور بيومهم. لكنهم لم يعرفوا ما سيحدث لهم في اليوم التالي، وبدا على بعضهم أمارات الخوف من احتمالية إرسالهم إلى مدرسة جديدة بها اختبارات، لكنهم طردوا تلك الأفكار من عقولهم واستمروا في الاستمتاع بيومهم. كان البيت رائعًا واحتوت الحديقة من الأزهار كل نوع ومقاعد للجلوس ومروج للعب وغدير بديع وغابة ومرتفعات صخرية للتسلق. استمتع الأطفال لفترة لكنهم قسموا أنفسهم إلى حفلات ثم أعلنت كل حفلة بتخصيص قطعة من الحديقة لنفسها وأنها لا علاقة لها بأية حفلة أخرى. بعد ذلك تشاجروا بعنف حول أحقية

أي منهم في الأرض، ثم أصبحوا عمليين وتشاجروا فوق الزهور حتى لم يبق زهرة قائمة، ثم دهسوا أرض كل منهم حنقًا، وبكت البنات حتى جف دمعهن، ثم استلقوا أخيرًا منهكين فوق الأنقاض انتظارًا للمساء ليعودوا إلى ديارهم. كذلك كان الأطفال في البيت يستمتعون بوقتهم بطريقتهم. فقد توفر لهم كل أنواع التسلية بالداخل: فصدحت الموسيقى لهم ليرقصوا، وفتحت المكتبة أبوابها لاستقبالهم بكل الكتب المسلية، كما كان هناك متحف مليء بالأصداف والحيوانات والطيور، وكان هناك ورشة بأدوات النجارة والحدادة، وفساتين جميلة للفتيات ليلبسوها، ومجهر ومقراب وكل ما قد يشتهونه من طعام.

ولكن في خضم هذا كله، قرر اثنان أو ثلاثة من الأطفال العمليين أنهم يريدون المسامير النحاسية التي ترصع الكراسي، وشرعوا في نزعها الواحد تلو الآخر. أما الآخرين المنهمكين في القراءة أو فحص الأصداف فقد شرعوا في فعل الشيء نفسه، ولم يمر وقت حتى كان كل الأطفال منهمكين في نزع المسامير النحاسية من أماكنها. لكنهم لم يكتفوا أو يرضوا بكل ما نزعوه وأراد كل منهم ما نزعه الآخر من مسامير. وفي النهاية أعلن العقلانيون العمليون أنه لا قيمة لأي شيء في يومهم ذلك سوى الحصول على أكبر قدر من المسامير النحاسية، وأن الكتب والكعك والمجهر لا قيمة لهم سوى أنه يمكن استبدالها بمسامير نحاسية أخرى. ولم يمض وقت حتى شرعوا في قتال بعضهم البعض على المسامير كما تقاتل الآخرون على قطع الحديقة. هنا بدأ المستضعفون بالانزواء في الركن في محاولة للقراءة في سلام في وسط الضوضاء، لكن العمليين أكثر قضوا يومهم في عد المسامير النحاسية، رغم علمهم بأنه لن يُسمح لهم بالمغادرة بأكثر من قبضة من المسامير. لكن لا. كان عنوان اليوم «من لديه مسامير أكثر؟ لدي مائة ولديك خمسون فقط، أو لدي ألف ولديك ألفان. لا بد أن يكون لدي مثلك قبل أن أغادر المنزل وإلا فلن أذهب إلى البيت خالي البال». في النهاية أصدروا الكثير من الضوضاء حتى استيقظت، وقلت

لنفسي: «يا له من حلم مزيف، عن الأطفال». الحقيقة أن الأطفال لا يفعلون هذه الحماقات. لكن الرجال يفعلون.

ولكن هناك نوع آخر من الناس لنستجوبه. الحكماء المتدينون الذين سألناهم بلا جدوى، الحكماء المفكرون بلا جدوى، الحكماء الدنيويون بلا جدوى. ولكن هناك نوع آخر بعد. في وسط هذا الزخرف من التدين الفارغ، من التأمل المأساوي، من الطموح الغاضب البائس اللاهث خلف الغبار، هناك نوع من الناس يعيش عليهم كل هؤلاء المتنازعين، الذين قرروا، أو هددتهم العناية الإلهية إلى القرار، بأنهم سيفعلون شيئًا مفيدًا، بأن أيًا ما قُدر لهم أو أصابهم فإنهم سيستحقون الطعام الذي منحهم الله إياه بكسبه بشرف، وأنه مهما ابتعدوا عن النقاء وضلوا طريق جنة عدن، فإنهم سيحملون واجب عالم البشر رغم خسارتهم هناءه، وسيحتفظون بالبرية رغم عجزهم عن الحفاظ على الجنة.

هؤلاء –قاطعو الأشجار وحاملو المياه– الزارحون تحت عقبات الحياة والممزقون من البلوى، هؤلاء من يحفرون ويخيطون، من يزرعون ويبنون، العاملون في الأخشاب، وفي الرخام، وفي الحديد، المنتجون لكل طعام ولباس ومسكن وفرش وكل مظهر رفاهية، لأنفسهم وللآخرين، رجال صلحت أعمالهم وإن قلت كلماتهم. من هؤلاء قد نستقي تعاليمًا واضحة جلية وندلف، ولو مؤقتًا، في لغز الحياة وفنونها.

نعم. من هؤلاء نتعلم دروسنا. ولكن يؤسفني القول، أو –إذ تلك حقيقة الأمر– يسعدني القول بأن رسالتهم لا تصلنا إلا بالانضمام إليهم، لا بتأمل أحوالهم.

لقد أرسلتم إلي لأحدثكم عن الفنون، ولقد أطعتكم في القدوم. ولكن أهم ما أود أن أقوله إليكم هو أن الفنون لا يجب الحديث عنها. فحقيقةُ أن هناك حديث عنها على الإطلاق دليل على أنه يُساء فهمها. إذ لا يتحدث فنان عظيم عن فنه أبدًا، فالعظماء

لا يقولون شيئًا. حتى رينولدس[1] لم يكن استثناء، فقد كتب عن كل ما لم يستطع فعله، وكان صامتًا حيال كل ما فعله بنفسه. إن اللحظة التي يحقق فيها الإنسان شيئًا هي اللحظة التي يصمت عندها. إذ تصبح كل الكلمات تافهة في نظره كما كل النظريات.

هل الطائر في حاجة إلى الحديث عن بنائه عشه أو التباهي به بعد بنائه؟ كذلك كل عمل عظيم: دون تردد، ودون صعوبة، ودون تباهٍ. وفي منجزي الأشياء العظام تكمن قوة داخلية لا إرادية تشبه إلى حد كبير غريزة الحيوان. بل إنني متيقن من أنه في الفنانين العظام لا يستبدل المنطق الغريزة، وإنما يُضاف إلى الغريزة، وأن المغني العظيم يفعل ذلك بغريزة لا تقل عن العندليب، بل تزيد بقدرة تحكم، وأن المعماري العظيم لا يبني بغريزة أقل من النحل، بل تزيد برؤية عبقرية للتناسب تضم كل الجمال، وأصالة إلهية من المهارة تبتكر كل المنشئات. ولكن سواء كانت الغريزة أكثر أو أقل من الحيوانات السفلى، فإن الفنون البشرية تعتمد على الأولى، ثم على قدر من الممارسة وقدر من المعارف وقدر من الخيال وانضباط الفكر، والتي يعرف من يمتلكها جميعًا أنه يصعب وصفها، ويعرف منتقدها أنها تحتاج إلى سنوات طويلة من الكد والعمل. في رحلة غزو الحياة تلك، حيث تعترضنا تلال وتلال، وجبال وجبال، ثم تفسح لنا الطريق، هل تعتقد أنه بإمكانك أن تدفع أحدهم لتسلقها بكد بمجرد الكلام؟ لماذا ليس بإمكانك أن تحملنا فوق جبال الألب بالكلام؟ قد ترشدنا خطوة بخطوة، ليس إلا، وفي صمت تام. أنتنّ أيها البنات ممن جالوا بين التلال تعرفون أن المرشد السيء يثرثر دون انقطاع مكررًا «ضعي قدمك هنا» و«احذري من فقدان توازنك هنالك»، أما المرشد الجيد فيسير بهدوء، دون أن ينبس بكلمة، وعينه فقط عليك إن اقتضت الحاجة، وذراعه كقضيب

1. جوشوا رينولدس رسام إنكليزي من القرن الثامن عشر، وأول رئيس للأكاديمية الملكية للفنون (المترجم)

معدني إن لزم. نتعلم الفنون بهذه الطريقة المتأنية، إن وثقنا في مرشدنا وجعلنا من ذراعه قضيبنا المعدني حينما نحتاجه. ولكن بأي معلم فنون تكمن تلك الثقة؟ ليس فيّ بالتأكيد، لأنني أعرف أنكم ما سمحتم لي بالحديث هنا إلا لأنني أجيد الكلام، لا لأني أجيد الفنون. فإن أخبرتكم بشيء غريب على آذانكم فإنكم لن تصدقوني، ولن أكون ذا فائدة لكم ما لم أخبركم بالشيء الغريب. قد أكون ذا فائدة عظيمة لكم إن آمنتم بذلك، لكنكم لن تفعلوا ذلك لأن الشيء ذا الفائدة الحقيقية يناقض المزاج الفطري لكم. جميعكم مثلاً تتيهون إعجابًا بغوستاف دوريه[1]. حسنًا لنفترض أنني أخبرتكم بأقوى العبارات التي أمتلكها أن غوستاف دوريه فنه سيء، ليس سيئًا لضعفه أو فشله، بل بالغ السوء لدرجة أنه مهما تأملت فيه فلن تخرج بملمح جمالي واحد. لنفترض أنني أخبرتكم ذلك! أي فائدة تُرجى من ذلك؟ هل ستنظرون إلى غوستاف دوريه نظرة انتقاص منه؟ بل ستعجبون به أكثر! على النقيض، قد أوافق ميلكم إن أردت. أعرف جيدًا ما تحبون وكيف أمتدحه. قد أحدثكم عن ضوء القمر والشفق، وزهور الربيع، وأوراق الخريف، ولوحات رفائيل، كم هي رائعة! وعرافات ميكيل أنجلو، كم هي بديعة! وقديسين أنجليكو، كم هم أتقياء! وملائكة كوريغو، كم هم طاهرون! بإمكاني أن ألعب على القيثارة ألحانًا تطربكم. ولكن لا أنتم ولا أنا سنكون أفضل أو أكثر حكمة، لأن الفنون تختلف عن العلوم في أن قوتها لا تقوم على حقائق ننقلها لغيرنا وإنما على نزعة تتكون في أعماقنا. لا يتحقق الفن بالجهد في التفكير، ولا يتضح بدقة التعبير. إنه النتيجة الغريزية لقوى تكونها عقول أجيال متتالية، والتي تنفجر في الحياة تحت ظروف اجتماعية بطيئة النمو كالملكات التي تنظمها. أزمنة من التاريخ العظيم تُختصر، وتتركز انفعالات أعداد لا تحصى من الموتى، في وجود فن نبيل. وإن كان بيننا فن نبيل فإننا نستشعره ونحتفي به دون أن نهتم بسماع

---

1. غوستاف دوريه رسام ونحات فرنسي من القرن التاسع عشر (المترجم).

محاضرات عنه. ولكن لأنه ليس بيننا، فتأكدوا أننا لا بد عائدين إلى جذوره، أو على الأقل إلى حيث لا يزال جذعه حيًا وإن بدأت الأفرع في الانزواء.

ولكن اسمحوا لي الآن أن أشير أنه إن تقصينا النواة الحية للفنون القومية التي اندثرت فإننا لن نجد اندثارًا لقواها في أية دولة أوروبية أكثر من أيرلندا. إذ كان في أيرلندا جامعة تنوير منذ القرن الثامن تدرس كافة مواد الابتكار والتحسين، دون قرين تقريبًا، وتقدمت حتى بلغت أعلى درجات الإتقان في العمارة والرسم. ولكن كان هناك خلل قاتل في طبيعتها أدى إلى توقف جلي ليس له مثيل ما جعلني، وأنا أتقصى طلبة كنسنغتون وتطور الجامعات الأوروبية من مهدها إلى قوتها، أختار لهم في محاضرة نُشرت حينها نوعين مميزين من الفن المبكر، كانت المهارة في أحدهما تقدمية بينما كانت المهارة في الآخر متوقفة، في الأول كان العمل مرحّبًا بالتصحيح، جائع للتصحيح، بينما رفض الثاني أي تصحيح بطبيعته. لقد اخترت لهم حواء قابلة للإصلاح وملاك غير قابل للإصلاح، ويحزنني القول بأن الملاك غير القابل للإصلاح كان ملاكًا أيرلنديًا.

إنما يقع الاختلاف كله هنا، ففي نوعي الفن كان هناك قصور في المعرفة، لكن حواء اللومباردية عرفت أنها مقصرة، بينما ادعى الملاك الأيرلندي معرفته بكل شيء. لقد أظهر النحات اللومباردي المتحمس، رغم إصراره على أفكاره الطفولية، في لمساته المتعرجة وكفاحه لتحقيق خطوط أنعم، أظهر إدراكًا للجمال والنظام وإن لم يظهره، فظهر جهده في كل عيب بكل خط. لكن الرسام الأيرلندي رسم ملاكه دون إحساس بالفشل، وبإعجاب كامل بالنفس، ووضع نقاطًا حمراء في الكفين، ورسم العينين دائرة مثالية، ويحزنني القول أنه أهمل الفم كلية، كل ذلك برضا تام عن نفسه.

هل لي أن أسالكم، دون إهانة، أن تتفكروا ما إذا كانت وتيرة التوقف للفنون الأيرلندية القديمة قد ساهمت في كبح قوتكم القومية؟ لقد شهدت على كثير من الروح الأيرلندية، وعن كثب، لأنني فتنت بها. وأظن أن نوع الفشل الذي يعزى إليه كل ذلك هو الميل إلى العطاء وعقد النية لفعل الصحيح دون النظر إلى القوانين الخارجية للصحة، بل التركيز الكامل على فعل الصحيح، ثم فعل الخطأ دون اكتشاف ذلك. وعندما تأتي تبعات الخطأ فإنهم لا يعقدون ربطًا بينها وبين أفعالهم وإنما يدخلون في نوبات غضب، وطلب ملح للعدالة، في شعور كامل بالبراءة، ما يضلهم أكثر، ويدفعهم لفعل كل شيء خاطئ بضمير مطمئن.

ولكن لاحظوا أنني لا أعني القول بأنه في ماضي أو حاضر العلاقات بين أيرلندا وإنكلترا كنتم على خطأ وكنا على صواب. على النقيض من ذلك، أعتقد أنه في كل مسائل المبادئ الكبرى، وفي كل تفاصيل تطبيق القانون، كنتم عادة على صواب وكنا على خطأ، أحيانًا بإساءة فهمكم، وأحيانًا بظلم عمدي تجاهكم. رغم أنه في كل النزاعات بين الدول، يكون القوي تقريبًا دائمًا على خطأ والأضعف على خطأ أقل، لكنني أظن أننا نعترف بإمكانية ارتكابنا للخطأ أحيانًا، بينما لا تفعلون ذلك.

والآن عودة إلى السؤال الأعم: ماذا يمكن أن تعلمنا فنون الحياة وأعمالها عن لغزها؟ هذا أول دروسها: أنه كلما زاد جمال الفن، كان عمل أناس يشعرون بأنهم مخطئين، أناس يسعون لمراعاة القانون وتحقيق الجمال الذي لم يحصلوا عليه، والذي يشعرون أنه يصبح بعيد المنال أكثر كلما سعوا لتحقيقه. في الوقت ذاته فإنه عمال أناس يشعرون أنهم محقون، وأن هذا الشعور بحتمية الخطأ عن مقصدهم هو نفسه كمال مقصدهم، وأن شعور الفشل ناتج عن فتح العينين أكثر لكل قوانين الحقيقة الأكثر قداسة.

هذا هو الدرس الأول. أما الثاني فدرس بسيط لكنه بالغ القيمة: أنه عندما نحقق فنون الحياة وأعمالها بهذه الروح الكادحة ضد الاضطراب، ونقوم بكل ما يمكننا القيام به، بشرف وإتقان، فإن ذلك يحقق لنا السعادة، بأكبر قدر ممكن لطبيعة الإنسان. ففي كل مسارات الحياة الأخرى التي تحقق السعادة، نجد دومًا الإحباط أو الانهيار، إذ لا راحة للطموح ولا للشغف. إن أعظم متع الشباب تندثر في الظلام أعظم مما توهجت في النور، وأنبل حب وأطهره يشغل سحابة الحياة بنيران لا نهائية من الألم. ولكن صعودًا من الأقل إلى الأعلى، عبر كل عمل إنساني، فإن كل عمل يمنح الإنسان السلام. سل العامل في الحقل، أو في المصهر، أو في المنجم، سل المريض، أو الفنان بارع اليدين، أو قوي البنيان، سل العامل رقيق القلب، ولن يخبرك أحد منهم، إن كانوا عمالا حقيقيين، أنهم وجدوا قانون السماء قانونًا جائرًا، أنه بعرق جباههم يأكلون الخبز، حتى يعودون إلى الأرض، كما لن يخبرك أحد منهم أنهم وجدوا طاعتهم غير مجزية إن هم حقًا أطاعوا الأمر «كل ما تجده يدك لتفعله، فافعله بقوتك».

هذان هما الدرسان العظيمان والدائمان الذان نتعلمهما من عمالنا عن لغز الحياة. ولكن هناك درس آخر، أشد حزنًا، لا يمكننا أن نتعلمه منهم، بل علينا أن نقرأه على شاهد قبورهم.

«فافعله بقوتك». لقد اتبع عديد وعديد من البشر هذا القانون، الذين قدموا كل نفس وكل جهد في طاقتهم في كدح وكد، الذين كرسوا كل ساعة، واستنفذوا كل ملكة، الذين أجلوا تفكيرهم عن الموت، الذين بعد موتهم لم يحدثونا بسلطة ذاكرتهم وقوة عظتهم. وفي النهاية، ماذا حقق كل ذلك العدد من البشر، في ست آلاف سنة من العمل والحزن؟ ماذا أنجزت؟ لنتأمل أهم ثلاث أعمال وفنون للبشر، واحدًا بواحد، ولنحصي إنجازاتها. لنبدأ بالأول –أهمهم جميعًا– الزراعة. مضت ست آلاف سنة منذ بدأنا حرث الأرض التي منها خرجنا. كم حرثنا منها؟ لماذا، في

قلب أوروبا وجنتها الرئيسية، حيث كانت حصون صورتي المسيحية الأولى، حيث يقطن كاثوليك غابة كانتون النبلاء، والنبلاء البروتستانت لأودية فودوا، حيث تجري الأنهار الألبية في البرية دون استغلال، والمستنقعات التي بوسع بضع مئات من الرجال أن يزرعوها بعمل عام، لماذا تقضي على سكانها بحمق تام؟ هكذا الوضع في قلب أوروبا! بينما على ساحل أفريقيا القريب، جنة الهسبيريديس يومًا ما، أكلت امرأة عربية، منذ أيام قلائل، ابنها من المجاعة. وبينما كل خيرات الشرق تحت أقدامنا، لا نجد حبات أرز قليلة لأناس لم يطلبوا منا أكثر من ذلك، بل وقفنا نشاهد خمسمائة ألف منهم يموتون من الجوع.

ثم، بعد الزراعة، فن الملوك، وينسج منه فن الملكات، الذي يكرم كل امرأة وثنية ممثلة في شخص إلهتها العذراء، يكرم كل امرأة عبرية، بلسان أحكم ملك لهم يقول: «تمد يديها إلى المغزل، وتمسك كفاها بالفلكة. تبسط كفيها للفقير، وتمد يديها إلى المسكين. لا تخشى على بيتها من الثلج، لأن كل أهل بيتها لابسون حللا. تعمل لنفسها موشيات. لبسها بوص وأرجوان. زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض. تصنع قمصانًا وتبيعها، وتعرض مناطق على الكنعاني». ماذا حققنا في كل تلك الألوف من السنين بفن الخادمات الإغريقيات والمشرفات المسيحيات؟ ست آلاف سنة من الحياكة، فهل تعلمنا الحياكة؟ هل نجّدنا كل جدار بقماش أرجواني، وغطينا كل صدر بألوان بهيجة تقينا البرد؟ ماذا حققنا؟ إن أيادينا قليلة العدد، على ما يبدو، لننسج معًا غطاء بسيطًا لأجسادنا. لقد سخرنا الأنهار تعمل من أجلنا، وخنقنا الهواء بالنيران، لندير عجلاتنا، فهل كسونا أنفسنا؟ أليست شوارع عواصم أوروبا موبوءة بخرَق ملقاة وأسمال بالية؟ ألا يغطي أطفالكم ذل المهانة، بينما تكسو الطبيعة فقسة الطير في عشه، ورضيع الذئب في وكره؟ أليس ثلج كل شتاء يكسو ما لم تكسونه، ويغطي

ما لم تغطونه، وتتحمل رياح الشتاء بالأرواح المفقودة إلى السماء، لتشهد ضدكم بصوت المسيح «كنت عاريًا، فلم تكسوني».

أخيرًا لنتأمل فن البناء، الأقوى والأكثر تنظيمًا وتحملاً من كل فنون الإنسان، الذي إن أتقناه يدوم أكثر مما تدوم الصخور، ويقف شامخًا أطول مما تقف التلال. الفن المرتبط بكل فخر مدني وكل مبدأ مقدس، فيه يسجل الإنسان قوته، ويشبع حماسته، ويتيقن من دفاعاته، ويحدد مسكنه. وفي ست آلاف عام من البناء، ماذا حققنا؟ من كل قوتنا ومهارتنا لم تبق علامة سوى صخور مترامية تملأ الميادين وتعيق الأنهار. ولكن في هذه الخراب من الفوضى، من الزمن، ومن الغضب، ماذا بقي لنا؟ ككائنات بناءة متقدمة، بعقول مهيمنة وأيادٍ خلاقة، ألا يمكننا أن ننافس في الراحة حشرات الغابة، أو ننافس في الإنجاز ديدان البحر؟ يبني النمل والعث غرفًا لصغاره، بينما صغارنا مرميون في أكوام عفنة، في بيوت تستهلكهم كالقبور، وليلة وراء ليلة، في أركان شوارعنا تتصاعد صيحات المشردين «كنت غريبًا، ولم تستضيفوني».

هل لا بد من أن يكون الأمر كذلك؟ هل قدّر لحياتنا أن تكون دومًا بلا نفع، بلا مغنم؟ هل على قوة أجيالنا أن تصبح جرداء مثل الموت، أو أن تلقي عملها كما تلقي شجرة التين البري تينها في غير موعده؟ هل الأمر برمته حلم-رغبة العيون وفخر الحياة، أم أنه ليس بإمكاننا أن نعيش في حلم أنبل من ذلك؟ الشعراء والرسل، الحكماء، الكتاب، رغم أنهم جميعًا لم يخبرونا شيئًا عن الحياة القادمة، فقد أخبرونا الكثير عن حياتنا الحالية. لقد كان لهم –هم أيضًا- أحلامهم، ولقد ضحكنا عليهم. لقد حلموا بالرحمة، بالعدالة، بالسلام وحسن النوايا، لقد حلموا بعمل لا يخذل صاحبه، وبراحة غير مكدرة، لقد حلموا بحصاد وفير، وخزين غزير، لقد حلموا بحكمة في المجالس، بسعادة الآباء، وقوة الأبناء، ومجد الشعرات البيضاء. ولقد سخرنا من رؤاهم تلك، واعتبرنا كلامهم تافهًا لا يؤدي إلى شيء ولا

يمكن تحقيقه. فماذا حققنا بواقعيتنا؟ هل هذا ما حققته حكمتنا المتمرسة على النقيض من حماقتهم؟ هل هذا أفضل ما في الإمكان على النقيض من مثاليتهم الزائفة؟ أم أننا تجولنا بين أطياف السعادة الأساسية وطاردنا أشباح القبور، بدلا من رؤى القدير، فسرنا وراء خيالات قلوبنا المريضة، بدلا من أن نسير وراء حكماء الأبدية، حتى أن حياتنا –ليست كسحابة سماوية بل دخان بخمن الجحيم- أصبحت «كبخار يلوح هنيهة ثم يتلاشى».

ولكن لا تتلاشى حقًا؟ أأنت واثق من ذلك؟ نعم أن عدم القبر سيكون راحة من هذا العدم المضطرب، وأن الظل الملتوي الذي يزعج نفسه بلا فائدة لن يتحول إلى دخان العذاب الذي يتصاعد إلى الأبد. هل من إجابة يثقون بها، أنه لن يكون هناك خوف، ولا أمل، ولا رغبة، ولا عمل، حيثما ذهبوا؟ وإن سلمنا بذلك، ألا يدفعك ذلك لأن تستوثق من الحياة الحالية، كما أنت مستوثق من الموت القادم؟ إن قلوبكم مرتبطة كلية بهذا العالم، فلم لا تمنحوه قلوبكم بحكمة؟ اعلموا، أولا، أن لكم قلوبًا وأنها قلوب سليمة. فإن لم تكونوا باحثين عن السماء، هل هذا سبب لتظلوا جاهلين بهذه الأرض اللامتناهية والرائعة، والتي أورثتموها؟ فإن كانت أيامكم معدودة، وظلام الموت قادم لا محالة، هل يعني ذلك ضرورة أن تشاركوا البهائم في مهانتها لأنه حُكم عليكم بالفناء، أو أن تعيشوا حياة العث، وحياة الديدان، لأنكم سترافقوها تحت التراب؟ بالقطع لا، ربما تبقى لنا بضع آلاف من الأيام، ربما مئات فقط، ربما عشرات، لا، فإن أطول أوقاتنا وأفضلها لا تبدو –عند التفكر فيها لاحقا- إلا كلحظة، كرمشة عين، ولكننا بشر ولسنا حشرات، أرواح حية لا غيوم مارة. إنه يرسل الرياح جنودًا له، ولهب النيران رسله. فهلا فعلنا المثل؟ لنفعل أفعال الرجال بينما نحن في صورتهم، وبينما ننتزع حصتنا الضئيلة من الزمن من فك الأبدية، ننتزع أيضًا نصيبنا الضئيل -ولكن المجيد- من العاطفة من فم الخلود، حتى وإن كانت حياتنا بخارًا يلوح هنيهة ثم يتلاشى.

ولكن بعضكم لا يصدق ذلك، إذ يعتقدون أن سحابة الحياة ليس لها نهاية كتلك، وإنما تطفو وتسطع وتنير على أرض الجنان عندما يأتي في سحابته، وتراه كل عين. يؤمنون أنه في يوم ما، خمس أو عشر أو خمسة عشر سنة من الآن، سيبدأ الحساب وتُفتح الكتب. هل هناك سوى يوم حساب واحد؟ لماذا كل يوم هو يوم حساب لنا؟ كل يوم يوم الغضب ويكتب حكمه النهائي في لهب الغرب. تظنون أن الحساب ينتظركم حتى تُفتح أبواب القبر. إنه ينتظركم على أبواب بيوتكم، ينتظركم في أركان شوارعكم، إننا في خضم الحساب الآن، والخلق الذين نسحقهم يحكمون علينا، اللحظات التي نضيعها تحكم علينا، والمتع التي تخدعنا تحكم علينا. لنفعل أفعال الرجال بينما نحن في صورتهم، إذ ليست حيواتنا بخارًا، كما أنها لن تتلاشى.

«أفعال الرجال» ولكن ما هذا؟ حسنًا، ربما يعرفها أي منا سريعًا، لاستعدادنا الكامل لفعلها. ولكن معظمنا يفكر، ليس فيما سنفعله، بل فيما سنحصل عليه، وينغمس أفضلنا في خطيئة أنانياس، وهي خطيئة كل الفانين، أننا نريد أن نحتفظ بجزء من الثمن، بينما نتحدث طول الوقت عن حمل الصليب، كما لو كان كل حمل الصليب وزنه، كما لو كان شيئًا لنحمله وليس لأن نُصلب عليه. هل يعني ذلك أنه في وقت الأزمة القومية، المحاكمات الدينية، المصائب التي تطول كل مصلحة وكل أمل للبشرية، فلن يتوقف أي منا عن السخرية، لن يتوقف أي منا عن التسفيه، لن يهرع أي منا لعمل مفيد، لن يفعل أي منا أقل جهد لإنقاذ العالم؟ أم أن ذلك يعني أنهم مستعدون لمغادرة بيوتهم، أراضيهم، وأهلهم، بل وحياتهم إن اقتضى الأمر؟ الحياة! بعض منا مستعدون للتخلي عنها، بكل عنائها ومتعها. ولكن «الحالة في الحياة» كم منا مستعدون للتخلي عن ذلك؟ أليس الاعتراض الأكبر عند البحث عن شيء مفيد لنفعله: «لا يمكننا أن نترك حالتنا في الحياة»؟

أما من لا يستطيعون منا، وأعني من يعتنون بأنفسهم بالاستمرار في عمل ما أو مكتب مأجور، فلديهم بالفعل شيء يفعلونه، وكل ما في يدهم أن يفعلوه بصدق وأمانة وبكل طاقتهم. ولكن معظم الناس الذين يستخدمون هذه الحجة «البقاء على الحالة التي كان عليها عندما دعاه الله» فإنهم يقصدون الإبقاء على كل العربات وكل الخدم وكل البيوت الفارهة التي يمكنهم شراؤها، لكني أقول أنه إن وضعهم الله في حالة كتلك –وذلك ليس أمرًا يقينيًا- فإن الله يستدعيهم الآن مجددًا. لقد كانت حالة لاوي في الحياة استيفاءه العادات، وبطرس ساحل جليلة، وبولس ملحق الكاهن الأعظم، فأية «حالة حياة» كانت لأي منهم ليغادروا دون إبلاغ مسبق.

وأيا ما كانت حالتنا في الحياة، فإن علينا في هذه الأزمة أن نؤدي واجبنا أولا بأن نعيش على أقل ما يمكننا، وثانيًا أن نفعل كل عمل خير في وسعنا، وننفق كل ما يمكننا إدخاره في فعل الخير ما أمكننا.

ولا ريب أن الخير أولا في إطعام الناس، ثم في كسائهم، ثم في إيوائهم، وأخيرًا في إمتاعهم بالفنون أو العلوم أو أي مجال آخر من مجالات الفكر.

أقول أولا في الإطعام، ولا تنخدعوا بما شاع من حديث عن عمل الخير دون تمييز. لسنا مأمورين بأن نطعم الجوعى المستحقين، أو الجوعى الكادحين، أو الجوعى الودودين، بل أن نطعم الجوعى فحسب. إنه من الصحة بمكان أنه إن لم تعمل فلن تأكل، فكر في ذلك كل مرة تجلس لتناول عشاءك، سيداتي وسادتي، وقل بجدية قبل أن تتلو صلواتك «كم عملت اليوم لأستحق عشائي؟» ولكن الطريقة المثلى لفرض ذلك الأمر على من هم أدنى منك، وكذلك على نفسك، ليس بأن تترك الصعاليك والصادقين سواءً ينهشهم الجوع، بل أن تفطن إلى الصعاليك وتعزلهم عن الصادقين، وتضمن أنهم لن يأكلوا ما لم يعملوا. ولكن علينا أولا أن نتأكد من

امتلاكنا للطعام الذي سنتصدق به، وذلك ما يتطلب تنسيقًا هائلاً بين الزراعة والتجارة، لإنتاج أجود الطعام وتخزينه وتوزيعه، وضمان عدم حدوث مجاعة أخرى أبدًا في العالم المتحضر. هناك كثير من العمل في ذلك المضمار ليشتبك الناس معه.

ثانيا كساء الناس، وأعني حث كل من تعرفه، ممن يلبس من اللباس أنيقه وأجوده، أن يسعى لجعلهم مثله. وأما إن رفضوا كل الرفض، فما عليك سوى الاعتناء بكل طفل في دائرتك لئلا يصير مثلهم، وأن كل من يلبس أنيق اللباس يسعي لغيره بذلك. وأول خطوة ضرورية لتحقيق ذلك أن نتبنى زيًا موحدًا لرتب الناس المختلفة، لكي نعرف رتبهم من لباسهم، وأن نحظر تغير الأزياء بدرجة ما. يبدو كل ذلك من الصعوبة بمكان الآن، ولكن الصعوبة نفسها في قهر خيلائنا ورعونتنا ورغبتنا في أن نبدو على غير ما نحن عليه.

وليس في اعتقادي –ولن يكون– أن تلك الوسائل والرذائل الصغرى أكبر من أن تقهرها النساء المسيحيات.

وثالثا إيواء الناس، والذي قد تظنون أنها من المفترض أن تكون الأولى، لكني وضعتها ثالثًا لأنه علينا أن نطعم الناس ونكسوهم حيثما وجدناهم، ثم نؤيهم بعدها. وإيواء الناس يتطلب تشريعات هائلة، وتخطي مصالح راسخة تقف في طريقنا، وبعد ذلك وبقدر ما أمكننا، عبر خطوات صحية وطبية في البيوت التي وفرناها، ثم بناء مزيد منها، في تجمعات سكنية تحدوها حدائق جميلة، تسمح بمرور الهواء العليل، وبمظهر جمالي، وتسمح بالمشي لأي مكان فيها. ذلك هو الهدف المنشود، ولكن علينا أن نفعل أي خطوة في سبيل تحقيق ذلك.

تلك هي الاحتياجات الثلاث للحياة المتحضرة، وقانون كل مسيحي ومسيحية أن يكونوا في خدمة تلك الاحتياجات الثلاث، طالما لم يؤثر ذلك على حياتهم الخاصة.

ومن خلال الكد في تحقيق تلك الاحتياجات الثلاث سيتأتى كل خير. ستدرك كل أسباب المعارضة، ستدرك أسباب مناهضي الخير، ستصلك أعمق الدروس عن الحياة، وستدرك الحقيقة التي ما كان لك أن تدركها بأي وسيلة أخرى. ستصل إلى حل كل مشكلة تعليمية تقريبًا، بمجرد أن تفعل شيئًا حقيقيًا، وسيصبح كل واحد مفيدًا في مكانه. ستصبح الاختبارات التنافسية مفيدة، لأنها ستصبح عملية وذات فائدة حقيقية.

لقد علمنا شبابنا الحكم اللاتينية واعتبرناهم مثقفين، والآن نعلمهم أن يقفزوا وأن يضربوا الكرة بالمضرب ونعتبرهم مثقفين. هل بمقدورهم الحرث، هل بمقدورهم غرس النبات، هل بمقدورهم تحديد موعد الزراعة السليم، هل بمقدورهم البناء بيد ثابتة؟ هل غرض حياتهم أن يكونوا بتولين، بأخلاق الفرسان، أوفياء، أفكارهم طاهرة، كلماتهم لطيفة وأفعالهم خيرة؟ إنه كذلك مع البعض، لا بل الكثيرين، وقوة إنكلترا كامنة فيهم، ولكن علينا أن ندير شجاعتهم من عمل الحرب إلى عمل السلام، وفطنتهم من حجج الكلام إلى إدراك الأشياء، وفروسيتهم من ترحال المغامرات إلى طاعة الملك. حينها سيمثلون إلينا دون خوف أو إذعان، بل بأمل، يمتثلون إلينا وبنا، كما نمتثل جميعًا لأبينا، فليس أعظم من عمل الخير.

تمت.